قصة سيدنا يونس

العبرة الأساسية في قصة يونس عليه السلام هي الصبر على الدعوة.

أنت مكلف ومسؤول:

هو يونس بن متى، وله أسماء أخرى ذكرها القرآن منها: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: 87]، و﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]، وقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى قرية تسمى: «نينوى»، وهذا عرفناه من حديث النبيّ ﷺ، ونينوى هذه كانت بلداً يزيد عدد سكانها عن المائة ألف، وكانت بلداً غنية وكان أهلها يعبدون الأصنام، وكانوا كفرة وفجرة وعصاة، وكان سيدنا يونس هو النبيّ الذي أرسله الله تبارك وتعالى وكلفه بدعوة هؤلاء، يا يونس، أنت مطلوب منك أن تأخذ بأيدي هؤلاء إلى الله تبارك وتعالى، هذه هي مسؤوليتك، يا فلان، مسؤوليتك في الجامعة أن تأخذ بأيدي أصحابك إلى الله تبارك وتعالى، يا فلانة، أنتِ تسكنين في المبنى الفلاني مهمتك هي الأخذ بأيدي أخواتك المسلمات إلى الله، بالمناسبة لقد أمر الله بهذا كل واحد منا ضمنياً، يعني: سيدنا يونس عليه السلام أمره الله بأنه مسؤول عن هؤلاء الناس، والتي اهتدت في هذا الشارع أنتِ مسؤولة عن هذا الشارع، *تعاملوا مع دين اللّه بأنكم أنتم المسؤولون عنه، لا تتعامل مع الأمر بأنك مسلم تصلي وتصوم فقط، ألم تفهم دين اللّه؟ ألم تفهم أن هناك شيئاً اسمه عبودية اللّه، طالما فهمت هذا إذن أنت أصبحت مسؤولاً أمام اللّه تبارك وتعالى، وستحاسب يوم القيامة على هذا، سيسألك رب العزة تبارك وتعالى يوم القيامة لماذا لم تأخذ بأيدي الناس؟ لماذا لم تدع الناس؟* فانتبه لما حدث لسيدنا يونس عليه السلام وانتبه أن يحدث معك نفس الأمر؛ لأنك مكلف ومسؤول... أنت مسؤول يا يونس عن دعوة هذه البلدة.

معنى هام جداً:

وظل يونس يدعو ويدعو لكن لا فائدة، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن هذه القرية سيقع بها عذابي خلال ثلاثة أيام وأمره أن يبقى بينهم، فأخبرهم بذلك.

الله تعالى أوحى له أن لا تتحرك يا يونس إلى أن يأتيك أمري، فبدأ يدعوهم ويحذرهم بأن الله سيسقط العذاب خلال ثلاثة أيام، ألم تعلموا ما حدث لقوم صالح؟ ألم تعلموا ما

حدث لقوم لوط؟ لكن لا فائدة منهم، فغضب غضباً شديداً؛ لأنهم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله، فقال: والله لن أقعد معكم في هذه البلدة، وقرر أن يترك القرية لكن الله لم يأمره بذلك وإنما أمره أن يدعو ولا يتخلى عنهم، معنى هام جداً، معنى أنك مكلف من الله تبارك وتعالى يعني: ليس الأمر مزاجياً، لا يهم أن أكلم أصحابي.. لا أنت بهذا تكون قد تخليت عن دعوة الله، يا سيدي، قد تقول: الناس ليس فيهم فائدة، هم أناس لن يستجيبوا، ولكن سيدنا يونس ﷺ، قومه أيضاً كانوا لا يستجيبون ومع ذلك غضب الله عليه عندما رفض أن يدعو قومه.

أصلح نفسك وادع غيرك:

قضية الدعوة إلى الله قضية يجب أن تكون مِحْوَر حياة كل مسلم في الكون، فكل مسلم مطالب أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى وإلى هذا الدين. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، هل نحن شعب الله المختار فقط وانتهى الأمر مثلما تقول اليهود؟ أم أننا الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس مثلما يقول الإنجليز؟ أم أننا فوق الجميع مثلما قال هتلر؟ نحن مثلما تقول الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ولكن بشروط: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، لاحظ الترتيب حيث وضع الله الإيمان به بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لماذا؟ حتى لا يقول أحد منا ما زال إيماني غير مكتمل، عندما يكتمل إيماني سأدعو إلى الله، لا، عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وفي نفس الوقت تكمل إيمانك وتزيده، الاثنان معاً على التوازي، *وانتبه لن تستطيع أن تكمل ايمانك الا اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر* لأنك بأخذك أيدي من حولك تحافظ على إيمانك، إن كنت لا تغض بصرك لكن لو أنك كلمت فلاناً وقلت له: يا فلان، اتق الله أغضض بصرك ستجد نفسك أغضضت من بصرك، ستقول لي: كيف أقول له غض من بصرك وأنا لا أغض بصري أليس هذا حراماً؛ لأن الآية تقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44]، المشكلة في قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا تنسى أن تبعد نفسك أنت أيضاً عن المعصية، يتحول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لوسيلة إصلاحية لنفسك، فتجد نفسك تنصلح وأنت تدعو إلى الله تبارك وتعالى.

غضبٌ في غير محله:

ونعود إلى سيدنا يونس ﷺ الذي غضب غضباً في غير محله، هناك من النساء من تقول لصاحبتها التي لم تهتد: لن أكلمك مرة أخرى في الدين، ويشاء الله أحياناً أن عتاة

الظلم وعتاة الفسق وعتاة الانحلال هؤلاء هم الذين يهتدون قبل الناس العادية؛ لأنهم ذاقوا مرارة المعصية، والمعصية لها ذل ولها ضيق فيتحولون تحولاً أسرع مما تتخيل، مثل عمر بن الخطاب ﷺ، انظر لقول الصحابي لزوجته: والله لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب، فكان لا يظن به الإسلام وصار عمر هو الخليفة الراشد الثاني... صار من فعل للإسلام كذا وكذا.

أيضيق عليّ لأجلهم؟

خرج سيدنا يونس عليه السلام وترك قومه وقرر أن يترك هذه البلدة واتجه ناحية البحر يريد أن يترك لهم الأرض، وهذه الأرض كانت في العراق، نينوى هذه كانت في «الموصل»، فذهب إلى البحر وترك لهم البلد والأرض بمن فيها: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [الأنبياء: 87]، أي: لقومه، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، لن نقدر هنا بمعنى: نضيق فقال: لن يضيق عليّ الله، كما في قوله: الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويقدر لها معنيان يقدر بمعنى: يستطيع ويتمكن، ويقدر بمعنى: يضيق، طبعاً هنا ليس معناها يتمكن هو طبعاً يعتقد أن الله يقدر عليه لكن ظن أن لن نقدر عليه، أي: ظن أن لن نضيّق عليه، هؤلاء كفرة وأنا المؤمن الصالح! انتبهوا؛ لأن المتدينين أحياناً يصيبهم هذا المعنى: أنا المؤمن الصالح وهم الكفرة الفجرة، أيضيق عليّ لأجلهم؟ إياك أن يأتي يوم وتعير فاسقاً بفسقه، يوجد حديث يرويه الترمذي يخوف المتدينين من ذلك، يقول النبيّ ﷺ: **«من عيَّر أخاه بمعصية يوشك أخوه أن يدعها ويفعلها هو»**[1]، مخيف هذا الحديث، أليس كذلك؟ إياك إياك أن تعير أخاك بمعصية أمام الناس، لكن ليس معنى هذا نرى المعصية ولا نقول لها: لا، لو هناك معصية نقول: هذه معصية لكن أن تعير أخاك بذاته هنا يكون الهدف «الشماتة» وليس الهدف إظهار الحق، ربما تكون نيتك إظهار الحق وتكون على صواب لكن بسبب «الشماتة» نخشى عليك أن يترك أخوك الذنب وتفعله أنت.

لا تتركهم!

ذهب سيدنا يونس عليه السلام مغاضباً وجاءت غمامة سوداء تمتلىء بالشر تغطي القرية، العذاب أتى، أحاطت الغمامة بالقرية وأظلمت القرية فبدأوا ينظرون فقالوا: هذا ما وعدنا يونس فبدأوا يتوبون إلى الله وبدأوا يجتمعون جميعاً، كل المائة ألف يرفعون أيديهم، يا رب نتوب إليك، نستغفرك لا إله إلا أنت، وبدأوا يعلنون التوحيد والوحدانية لله تبارك وتعالى،

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2505).

وبدأوا يتوبون، وآمنت القرية كلها وبدأت الغمامة تنسحب عنهم وتبتعد شيئاً فشيئاً فرفع عنهم العذاب، وآمنت القرية كلها، لكن أين يونس؟ ذهب مغاضباً! لماذا لم تظل معهم يا يونس لتأخذ ثواب المائة ألف؟

ليتك لم تترك أصحابك في الجامعة ويا ليتك استمريت لتأخذي بيد جارتك فقد تعجبت بعد أن تركتيها.

وخرج يونس مغاضباً:

ركب سيدنا يونس البحر، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: 140]، هرب العبد الهارب من ربه، انظر لاختيار الكلمة، يقول الله عليه كلمة شديدة: هرب مني، هرب من ربه؛ لأنه توقف عن الدعوة، قضية الدعوة إلى الله قضية خطيرة: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، المشحون: أي: المزدحم بالناس، سفينة ممتلئة بالناس ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: 141]، قاموا بقرعة وكلما فعلوها كان يظهر سهم يونس كأن الله تبارك وتعالى يريه من آياته، إنك أخطأت خطأً شديداً وسنسجنك الآن يا يونس، وبدأوا يلقون أحمالهم من السفينة، يلقون البضائع لكن السفينة ما زالت ثقيلة، فقال يونس: لا بد أن بيننا عبد غضب الله عليه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، [الأنبياء: 87]، يستحيل أن يكون أنا هذا العبد، هو أكيد بيننا أحد أغضب الله تبارك وتعالى، بل أنت يا يونس بسبب تركك الدعوة إلى الله.

أحياناً نحن نفعل ذنوباً من غير أن ننتبه أنها تغضب اللّه تبارك وتعالى، من هذه الذنوب ترك الدعوة الى اللّه ﷻ.

سبحان الملك!

قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: 141، 142]، انظر كيف يدبر ربك ملكه؟ هل هناك من يصدق أن السمكة التي في قاع المحيط عابدة من عباد الله ﷻ؟ يا حوت، كل يونس لكن إياك أن تغلق عليه بأسنانك أو تأكل منه لحماً أو تكسر منه عظماً، افتح فمك جيداً وابلع يونس، سمعاً وطاعة يا رب، فيتحرك الحوت، انظر لِمُلْكِ الله كيف يدار، كيف يقول أحد: أنا لن أغض بصري؟ كيف تقول لا وهو الذي يملك كل هذا؟ هو الذي يفعل كل هذه المعجزات، يا حوت، اخرج إلى سطح الماء، يا سفينة اغرقي، يا بحر هِج، ألقوا يا قوم أحداً منكم، يا حوت ابلع يونس، وينزل يونس في ظلمات: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: 87]، ليست ظلمة واحدة بل ظلمة الليل وظلمة قاع المحيط وظلمة بطن الحوت، ثلاثة ظلمات وكما جاء في حديث النبيّ ﷺ أن الله

أسمعه صوت مخلوقات البحر وهي تسبح فألهمه التسبيح، انظر لرحمة ربك، هو سجنه لكن أعطاه ما يطمئن قلبه، سيدنا آدم عليه السلام يأكل من الشجرة ويخطىء ولم يكن هناك شيء اسمه توبة يعني: لا يعرف كيف يتوب إلى الله، فقال الله له: يا آدم، أنت لا تعرف ماذا تفعل أليس كذلك؟ إذن قل هاتين الكلمتين، لو قلتهما سأتوب عليك، فقالهما فتاب عليه، تشعر أن ربك حتى وهو يبتليك يبعث لك الحل؛ لأنه يحبك، أحياناً نحن نصاب بالعمى فلا نرى هذا الحل، والله لم ينزل عليك ابتلاء إلا ومعه رحمة ولكننا أحياناً لا نرى هذه الرحمة؛ لأن الشيطان يعمينا عن هذه الرحمة برؤية الابتلاء، ورؤية الرحمة تحتاج منك لصلة بالله من قبل في الرخاء.

أقر بذنبك:

سجن يونس عليه السلام في بطن الحوت لكن انظر لإيمانه العميق: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، من في ظلمة المشاكل، وفي ظلمة الامتحانات، ينادي، ظلمة أن أباه وأمه انفصلا، وظلمة أن أباه يؤذي أمه، وظلمة أن ليس معهم مال، كل هذه ظلمات أيضاً، هناك الكثير من الناس تعيش في ظلمات، لكن من يقلد يونس في أصعب ظلمة في الوجود؟ مكان لم يُعبد فيه الله من قبل: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لو لم يعتذر، لو لم يقر بظلمه لنفسه لما أخرجه الله ﷻ، أقر لله، وهذه مشكلة أناس كثيرين أنهم لا يعترفون بذنوبهم، يا أخي، اقعد مع نفسك وقل له: سامحني أنا لن أعصِك بعد الآن، واجهوا أنفسكم، سيدنا يونس عليه السلام حبس حبسة لم تحدث لأحد غيره ومع ذلك عندما أظلمت الدنيا من حوله لجأ لله أكثر واعترف بذنبه، قال له: أنا كنت ظالماً كنت مخطئاً، أما نحن عندما تظلم الدنيا معنا نيأس من رحمة الله أكثر، واجهوا أنفسكم، واجه نفسك بأخطائك وقل: أنا أخطأت أنا فعلت في حق الله كذا وكذا، سامحني، قل له: سامحني وانظر ماذا سيقابلك؟ سيكرمك، لكن أن تصرّ وتأبى أن تواجه نفسك وتقول: إنني أخطىء، أنا اضطررت أن أفعل الذنب الفلاني، طالما أنك تجد لنفسك حججاً إذن لن يرحمك الله، إذا كنت لم تقر أنك أخطأت لماذا إذن يتوب عليك؟

يا أخي، اخضع لله وتذلّل له وقل له: أنا أخطأت وقلبها كثيراً له، قل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

هذا اسم الله الأعظم:

وهذا الدعاء بمجرد دعائك به يستجاب لك وسينجيك من الغم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87، 88]، إذن ليس ليونس خاصة، لا، وكذلك كل الذي يدعو بهذا الدعاء، ويكثر منه، يستجاب دعاؤه، وننجيه من الغم، فأصبح هذا الدعاء مفتاحاً، لدرجة أن بعض العلماء قالوا: هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، هو هذا الدعاء، دعاء يونس ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلما قالها ونادى وظل يقولها ويقولها، طبعاً وهو في بطن الحوت بدأ جلده يسقط وبدأ يصيب الجسد والجلد الأمراض، فأصبح غير قادر على الحركة، تخيل أن إنساناً محبوس داخل صندوق، تخيل لو أن أحداً وضعك بداخل صندوق وأغلق عليك هل ستقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؟ هل يقينك في الله سيعلو لهذه الدرجة؟ إنسان حبسك بداخل صندوق وتركك ومشى وألقى هذا الصندوق في البحر وليس أمامك إلا عشرين دقيقة تتنفس فيها ثم تموت ماذا ستفعل في هذه العشرين دقيقة؟ هل ستقول يا رب أم ستبكي؟

امر واستجابة:

أمر الله الحوت، يا حوت ألقِ يونس على الشاطىء، سمعاً وطاعة يا رب، ويخرج الحوت ويلقي يونس على الشاطىء، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: 145]، مريض متعب كل جسمه مريض: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: 146]، شجرة قرع لا يوجد في القرآن كلمة زائدة بل لا يوجد في القرآن حرف زائد، لماذا إذن قال الله: إنها شجرة يقطين؟ لأن الله يحب يونس جداً وهو قد نبذ في العراء، أرض جرداء ليس بها أي زرع وفجأة مثلما أمر الحوت وهو عبد لله، أمر الشجرة: انبتِ يا شجرة القرع! وظللي على يونس، سمعاً وطاعة يا رب، فتنبت شجرة القرع! لماذا شجرة القرع؟ لأن القرع فروعه كبيرة وظله كبير جداً، والقرع يمنع الذباب أن يأتي على الشيء الذي تحته والقرع تقدر أن تأكل ثمرته وهي ناضجة أو وهي نيئة فتستطيع أن تأكل هذا الأكل وأنت مريض سقيم لا تقدر على الحركة، ستأخذ من الشجرة وتأكل، يا لكرم الله تعالى! ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]، انظر لكلمة: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾، بمعنى: تعال يا يونس.

هل تبكي على موت القلوب؟

ومن الأشياء اللطيفة والآثار الجميلة جداً أن سيدنا يونس عليه السلام وهو تحت شجرة اليقطين وكان قد بدأ يتماثل للشفاء من غير أن يعرف، فإذا بالشجرة قد يبست وجفت، فبكى

يونس؛ لأنها جفت وقال: ومن الذي سيحميني؟ انظروا للنفس البشرية! من سيحميني بعدما جفت الشجرة؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: *تبكي يا يونس لجفاف شجرة ولا تبكي لضلال مائة ألف أو يزيدون!* انظروا إلى الدعوة إلى الله، تبكي؛ لأن رزقك قلَّ، ولا تبكي لأن الشارع الذي تسكن فيه قد جف هو أيضاً بالبعد عن الله، إذا كانت الشجرة جفت فهناك قلوب جفت أيضاً، عتاب مؤثر جداً جداً، عتاب لك أيضاً أتبكي لأنك لم تنجح في الامتحانات، أتبكي لأن زواجك تأخر، *هل منا من بكى؛ لأنه مر على مقهى ووجد فيه شباباً يعصون الله؟ هل منا من بكى قلبه على سب دين سمعه في شارع؟ هل منا من بكى قلبه على مغازلة شاب لفتاة في شارع؟ هل منا من بكى قلبه على شباب ضائع وقدس يضيع؟*

انظر إلى العتاب، أتبكي يا يونس لشجرة جفت ولا تبكي لمائة ألف أو يزيد؟ ماذا سنقول لله عندما يقول لنا هذا العتاب يوم القيامة؟ ادعوا وكلموا الناس وكونوا إيجابيين، عيشوا لدين الله تكن حياتكم ذات قيمة، وعاد يونس للمائة ألف فوجدهم قد أسلموا جميعهم.

رصيدك من الإحسان يحميك:

هذه كانت قصة سيدنا يونس عليه السلام، والقصة تقول: إياك واليأس من الدعوة، لكن عندي إضافة جديدة على قصة سيدنا يونس عليه السلام أشياء عقلية علينا التفكُّر بها، انظر إلى الفرق بين سيدنا موسى وسيدنا يونس عليهما السلام، أمر عجيب جداً، وهل هناك قاسم مشترك بينهما؟ نعم، وهو أن سيدنا موسى أخطأ عدداً من المرات ليس بالقليل، فهو ألقى الألواح التي هي كتاب الله وكلامه هذه واحدة، وهناك أيضاً موقف لسيدنا موسى أنه مسك نبياً وجره من ذقنه بصرف النظر أنه أخوه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: 94]، وهناك خطأ ثالث أنه قتل إنساناً، صحيح قتله خطأ لكن قتله في لحظة غضب ومع ذلك ربه يحبه ويكرمه، ويجعله في منزلة لم يصل إليها أحد من قبل حيث جعله كليم الله ويقول له: يا موسى، بعد كل هذه الأخطاء إني اصطفيتك على الناس، ما الموضوع؟ يونس أخطأ وغضب فلم يقبل الله هذا الخطأ رغم أنها مرة واحدة وسجنه الله في بطن الحوت وموسى يفعل أكثر من خطأ، فهل الله يحابي أحداً على أحد؟ معاذ الله، الله تبارك وتعالى عادل، إذن لماذا فعل مع سيدنا موسى هذا ولم يفعل مع سيدنا يونس؟ نقطة مهمة جداً وهي أنك إذا كان لك رصيد إحسان عند الله طويل وحسنات كثيرة ثم أخطأت ستة أو سبعة أخطاء يمسح لك كل الذي حدث منك، فرق كبير بين أن تقابل الله بذنب واحد فقط دون أن يكون عندك سوابق

إحسان كثيرة، وبين أن تقابل الله بخمسين ذنب وفي رصيدك حسنات عظيمة، فسيدنا موسى عليه السلام أخطأ أخطاء كثيرة لكنه وقف أمام فرعون وواجهه، وواجه السحرة فأصبحت أخطاؤه مثل الشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ليس لها قيمة، ومثل النقطة السوداء في الصفحة البيضاء، لكن سيدنا يونس لم يكن له من الإحسان ما كان لموسى فلم يجد الله تبارك وتعالى له من الرصيد ما يشفع له ـ وهذا الكلام للإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم ـ فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولولا أنه كان له سابقة خير لما خرج من بطن الحوت، وسابقة الخير هي التي يقول الله تبارك وتعالى عنها: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143، 144]، لولا أنه كان له قليل من الرصيد عندنا لما خرج من بطن الحوت، القاعدة هي القاعدة وتسير على الجميع، ففرعون لم يكن له رصيد إحسان على الإطلاق فلما جاءه الغرق وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: 90]، قال له الله تبارك وتعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: 91]، ما أريد قوله لكل مسلم: هل لك سابقة إحسان أم لا؟

فإذا أتى الحبيب بألف ذنب جاءت محاسنه بألف شفيع

فرق كبير بين أن تقابل الله بذنب واحد، يا رب أنا لم أخطىء، إلا هذا الخطأ فقط لكن ليس عندك رصيد، وفرق أنك أخطأت كثيراً لكن لك إحسان وحسنات كثيرة، ***من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة.*** الذي يواجه أزمة مالية ولكن لديه رصيد في البنك أفضل من الذي يواجه أزمة مالية من غير رصيد، وكذلك الأمر الذي يواجه أزمة مالية بمليون جنيه، وكان عنده في البنك عشرة ملايين جنيه، كان يدخرهم لوقت الاحتياج فيدفعهم ولا يتأثّر، لكن الذي عليه خمسة آلاف جنيه وليس عنده جنيه واحد في البنك؛ لأنه لم يكن يدخر، يدخل السجن، هذه هي قوانين الدنيا، ربك يتعامل معنا بهذه القوانين أيضاً، لا أحد يعلم متى سيتعرض للفتنة؟ متى ستقع امرأة في طريقك لتوقعك في فتنة؟ متى ستتغير الدنيا بك؟ أنت الآن معك وقت لتعبد الله، سيأتي وقت تكثر فيه الأولاد ولا تجد عندك وقتاً لتسجد لله سجدة إلا الفرائض، تعرفوا على الله في الرخاء يعرفكم في الشدة، عندما تجد عندك وقتاً أشغل نفسك بالعبادة، عندما تجد قلبك مفتوحاً لله لا تقل: يكفي هذا والله، جميل أنني فعلت اليوم حسنات كثيرة، لا. اعبد واعبد، وقل: يا رب، ادخر لي في الرصيد عندك، أتعلمون قصة الثلاثة الذين أغلق عليهم باب الغار؟ تذكر كل منهم حسنة كان قد فعلها قديماً بإخلاص لله، فبدأوا يدعون الله وبذلك خرجوا، يقول النبيّ ﷺ: **«لا يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه**

الجنة»[1]، إياك أن تشبع من الخير، *تعلم من تجربة سيدنا يونس واحذر من تجربة فرعون وافرح بتجربة سيدنا موسى* ﷺ.

كيف تسبق في طريقك إلى الله!

وتبقى نقطة أخيرة في قصة سيدنا يونس ﷺ، وهي سؤال: يا ترى هل نقصت مكانة سيدنا يونس؟ أنا أسأل هذا السؤال لأن له علاقة بنا، يا ترى الذي يذنب ثم يتوب هل يرجع للمنزلة التي كان عليها قبل الذنب أم مستحيل؟ طائفة قالت: يرجع واستدلوا بأن التوبة من أعظم الحسنات عند الله ﷻ، ومن أحب العبادات إليه، ولم يرد أن الله يفرح بالعبادة كما يفرح بالتوبة، هذا من نصوص الأحاديث الصحيحة، وأن الله تبارك وتعالى يحب التائبين، وأن التوبة تجعل العبد عند الله تبارك وتعالى في منزلة قد لا يصل إليها إلا بالتوبة، يعني: التوبة بعد الذنب تجعلك تصل لمنزلة ما كنت ستصل لها قبل التوبة؛ لأن التوبة حبيبة إلى الله تبارك وتعالى.

والطائفة الأخرى قالت: بالعقل كيف يسير اثنان معاً في طريق الله ثم توقف أحدهما وفعل ذنباً أما الثاني فما زال يسير فهل يلحق به؟ فقالوا: لا يمكن؛ لأن الأول يسير والثاني توقف فأكيد الأول سيسبق، لكن الحقيقة في هذا الأمر الخلافي والذي فيه كلام كثير يوجد كلام جميل، وهو القول بأنه على حسب درجة توبتك، يعني: هناك أناس تذنب الذنب وتتوب ولا يمكن أن ترجع إلى المنزلة التي كانوا عليها قبل الذنب؛ لأن توبتهم ضعيفة، ويوجد إنسان توبته قوية فيرجع للمنزلة التي كان عليها قبل الذنب؛ وهناك إنسان من كثرة ما يشعر أنه أخطأ في حق الله، فيسبق حالته قبل الذنب، الأمر بالضبط مثل المسافر في سفر ويعلم أن آخر هذا السفر سيصل إلى الجنة الجميلة، أما إذا أراد أحدكم أن ينام أو يمشي أو يتبختر في مشيه، أو أراد أن يقعد للتفرج على الأشياء التي في الطريق، وفي وسط الطريق إذا بالعدو يمسكه ويربطه فيتعرض للموت ويرى الموت بعينيه، وبدأ يحس أنه سيموت وبدأ يقول لنفسه: يا ليتني كنت أسير مسرعاً حتى لا يحدث لي ما حدث، يا ترى سأنجو؟ يا ترى سأنجو؟ فبينما هو في هذه الرقدة فإذا بأبيه فوق رأسه يفكه ويقول له: ها قد عرفت الطريق فإياك أن تنام مرة أخرى وأنت في الطريق، فإن العدو لك بالمرصاد فقام وجدَّ في السير وسار مسرعاً حتى يصل إلى جنته ومنتهاه، انظر لرحمة ربك تبارك وتعالى على مقدار ما في قلبك من الإصرار على العودة، على قدر ما تسبق إلى الله تبارك وتعالى ويمكن أن

---

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 129).

يكون هناك إنسان طائع لله منذ سنين وأنت عاصٍ، لكنك تسبقه يوم توبتك فأي دين عظيم وأي رحمة من رب العالمين هذه؟ وعلى قدر ما يكون في القلب من التوبة النصوحة على قدر سبقك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8]، يعني: توبة شاملة، توبة قوية، من قوتها كلما تأتي لتعصي تكون توبتك كإنسان ينصحك فسميت نصوحة؛ لأنك كلما أردت أن تخطىء تنصحك، تجدها هي التي تنصحك وهذا من قوتها، فأي رحمة من رب العالمين هذه؟ والذي يسمع هذا الكلام ولا يتوب فاعرف أنه سيىء جداً..

حلاوة التوبة:

إن أحد أسباب أن الله يقدر الذنب على عباده أنه يجعلك تذوق حلاوة العبادة، أنبياء الله معصومون لكن لهم أخطاء هي ليست أخطاء معاص، وذنوب لكنها أخطاء ترتيب أولويات، يعني: مثل سيدنا يونس كان الأولى به أن يدعو لكنه ذهب وتركهم، النبيّ ﷺ عبس وتولى، النبيّ ﷺ لم يخطىء لكنه لم يدرك الأولوية فأخطاء الأنبياء أخطاء الأولويات، فقط ليذوقوا هذه المنزلة الحلوة، يذيقهم عبادة التوبة؛ لأنها من المنازل الحبيبة إلى الله تبارك وتعالى؛ لأن التوبة يحبها الله من عباده؛ لأن فيها انكساراً وذلاً في القلب، مثل سيدنا يونس وهو يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لماذا اختص دعاء: **«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[1]، بأنه سيد الاستغفار؟ لأن فيه انكساراً، لأن الله تبارك وتعالى إن لم يتب عليك فأين يكون اسم الله التواب؟

لو أنك لم تخطىء فاسم التواب يتعطل، ويكون هناك اسم من أسماء الله الحسنى لا يعمل كيف وهو من صفاته العلى وأسمائه الحسنى، هناك حديث للنبيّ ﷺ جميل جداً يقول: **«لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»**[2]، لأن يونس أخطأ فلا يقول أحد إنه لم يخطىء، كأن النبيّ ﷺ يريد أن يقول لك: يونس بعد التوبة سبق نفسه قبل التوبة، فلا يقول أحد أنا سابق يونس بن متى، هو سبق نفسه، أرأيت كيف أن التوبة جميلة؟ الانكسار الذي يلحق بالتوبة جميل جداً.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 85)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3872)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 122).

(2) أخرجه **الدارمي** في (الحديث: 2/ 309)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 1/ 440).

إذا لم تعصِ فعلى من يتوب الله؟

سأل داود مرة ربه فقال: يا رب أين أجدك؟ فقال له الله تبارك وتعالى: تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، وجاء في الأثر أن أحد العباد من التابعين وهو يطوف بالبيت ويقول: يا رب اعصمني، يا رب اعصمني، يا رب اعصمني، يا رب اعصمني حتى لا أعصاك أبداً، فبعدما طاف نام فرأى في المنام من يقول له: يا فلان، أنت تطلب العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون العصمة فإذا عصمتك فعلى من أتفضل برحمتي وعفوي؟ وجاء في الأثر وهو حديث: أن آدم لما أكل من الشجرة ظل يبكي حتى بعدما تاب يبكي فناداه الله تبارك وتعالى وقال له: **«يا آدم، إنما ابتليتك بالذنب، لأني أحب أن أظهر فضلي وعفوي وجودي وكرمي، يا آدم، كنت تدخل علي دخول الملوك على الملوك والآن بعد الذنب تدخل علي دخول العبيد على الملوك وذلك أحب إلينا، يا آدم، لا تفزع من قولي لك اخرج منها، فلك خلقتها ولكن انزل إلى الأرض، وابذل المجاهدة في حبي حتى إذا اشتقت إلي تعال أدخلك الجنة، يا آدم، ذنب تتذلل به إلينا أحب إلينا من تسبيح المرائين، يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك فعلى من أتفضل بجودي ورحمتي وعفوي وأنا التواب الرحيم»**.

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت كل ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

توبوا ليعفوا عنكم العفوّ، توبوا فهو يحب التوابين، الله قدر المعصية على عباده ليتوبوا وليتفضل عليهم بصفة التواب الغفور الرحيم، هذه هي قصة سيدنا يونس وهذا كان تعليقنا على قصة سيدنا يونس، والمعنى الأخير أن سيدنا يونس عليه السلام بلغ بعد توبته وبعد ندمه وبعد كلمة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منزلة أعلى عند الله من التي كان عليها قبل أن يذنب وقبل أن يخطىء.